

قصور الزاب الغربي: بين أخطار الاندثار وإمكانية الاستمرار

Ksour of the Western Zab: between the dangers of extinction and the possibility of continuation

صلاح الدين هدوش¹*

¹ جامعة باتنة 1 (الجزائر)، salaheddine.heddouche@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2020-12-12

تاريخ الاستلام: 2020/11/17

ملخص:

هدفنا من خلال هذا المقال البحث في واقع قصور الزاب الغربي، لما تكتسيه من أهمية من وجهة نظر التاريخ وعلم الآثار وعلوم شتى ذات صلة. هذا التراث المعماري الواحي الذي يروي جزءاً من الماضي، ويشهد على ما توصل إليه إنسان المنطقة في توجيه الظروف البيئية المحيطة به لصالحه، في حالة يرثى لها يعاني التهميش وهجر السكان له وتراجع نسيجه العمراني. وقد بينت دراستنا قيمة التراث المعماري القصوري للزاب الغربي، ووضحت حاله والمخاطر التي تهدد بقاءه، وقدمت سبل كفيلة بحمايته وإحيائه، ولخصت في الأخير جملة من التوصيات والحلول للعمل بها أملاً في إنقاذه. الدراسة اعتمدت المنهجين التاريخي والوصفي التحليلي، وتركز جمع المادة العلمية على جانبين أحدهما نظري بتفحص أمهات المصادر والمراجع لضبط المفاهيم والمصطلحات والخصائص، وجانب نظري ميداني قوامه زيارة عينات البحث وتبيان واقعها وتسجيل الملاحظات وأخذ الصور التوضيحية اللازمة.

الكلمات المفتاحية: قُصَر؛ زاب غربي؛ أخطار طبيعية؛ أخطار بشرية.

Abstract

This article tried to research the reality of the Western Zab ksour, for their importance from the point of view of history, archeology and various related sciences. This oasis architectural heritage narrates a part of the past, and testifies to what the people of the region reached in directing the environmental conditions surrounding him.

Our study has shown the value of the ksourien architectural heritage of the Western Zab, clarified its condition and the dangers threatening its survival. It provided the means to protect and revive it, and in the end summarized some recommendations and solutions to work with in order to save it. The study adopted the historical and analytical approaches, and the collection of scientific material focused on two aspects, one of which was theoretical by examining the main sources and references to control concepts, terminology and characteristics. The theoretical aspect was based on visiting the research samples, showing their reality, recording notes and taking the necessary illustrative pictures.

Keywords

ksar; Western Zab; Natural hazards; Human hazards.

* المؤلف المرسل

1- مقدمة

إن التراث الثقافي بأشكاله المختلفة (خاصة المادي منه) يمثل أداة رئيسية وهامة في تعزيز هويتنا الوطنية؛ كما أنه أحد العوامل الاقتصادية التي يمكن أن تحسن من حياة مجتمعنا من خلال الجذب السياحي، ولعل حفظ المعالم التاريخية وتنمية المواقع الأثرية تكتسب اليوم أولوية في سياسات المجتمع الدولي والحكومات الوطنية؛ وذلك بسبب الدور الرئيسي الذي يمكن أن تضطلع به في تعزيز السياحة وزيادة الفرص الاقتصادية، بالإضافة إلى التنمية المستدامة على المدى البعيد.

وتملك الجزائر مقومات سياحية هامة ومتنوعة يمكن أن تسهم بشكل فعال في زيادة الدخل القومي للبلاد أمام تراجع عائدات النفط، لكن يجب استغلال هذه المقومات وتفعيلها بعقلانية حتى لا تكون عائداتها ومداخلها قصيرة الأمد، بل يجب التعايش بين حماية هذه المقومات وتحقيق التنمية المستدامة (هدوش، 2017، صفحة 339).

وبلاد الزاب (ولاية بسكرة) من أهم المناطق الجزائرية من حيث تنوع تراثها الطبيعي والثقافي، فهي تملك مناظر طبيعية خلابة، سلاسل جبلية، واحات نخيل، تنوع في المناخ بين شمال المنطقة ووسطها وجنوبها الملائم للسياحة، إضافة لتراث ثقافي مادي هام؛ حيث تملك المنطقة عدد كبير من المعالم التاريخية والأثرية والدينية منها مسجد وضريح عقبة بن نافع، الموقع الأثري تهودة، الموقع الأثري بادس، متحف الآثار القديمة ومداسر القنطرة، وعدد من القصور العتيقة مثل قصر ليشانة، طولقة، فرفار، شتمة، سيدي عقبة، وخنقة سيدي ناجي، هذه القصور استوقفتنا كباحثين نظرا لأهميتها التاريخية والحضارية، في فهم ما أنتجته العبقرية الشعبية في هذه البيئة الجافة بكل معطياتها.

وتمثلت إشكالية البحث في سؤال جوهرى مفاده:- كيف هو واقع قصور الزاب الغربي؟ وتندرج تحت هذا السؤال مجموعة تساؤلات:- ما مدلول القصر؟ - ما الأهمية التي تكتسبها قصور الزاب الغربي؟ وكيف حالها؟ - هل تعاني من مخاطر تهدد بقاءها؟ - ما هي السبل الكفيلة بحماية هذا التراث المعماري وإحيائه؟ وقد اتبعنا في عملنا المنهجين التاريخي و الوصفي التحليلي خصوصا في تحديد المفاهيم وتبيان أهمية القصور المنوطة بالبحث وخصائصها وسماتها وواقعها وكيفية النهوض بها وإنقاذها، وقد ركزنا في جمع المادة العلمية على جانبين رئيسيين: أولهما الجانب النظري؛ ويشمل الاطلاع على النصوص والوثائق التاريخية ومختلف ما تحتويه المصادر والمراجع والبحوث من معلومات تخدم الموضوع وتعرف بمواقع وأصول القصور المنوطة بالدراسة، وثانيهما جانب ميداني؛ ويضم الدراسة الأثرية الميدانية والتطبيقية؛ وقوامها زيارة مواقع التراث العمراني بإقليم الزاب الغربي حتى نتمكن من الدراسة الوصفية والتحليلية اللازمة وأخذ الصور الكافية ورسم المخططات اللازمة.

2- مجال الدراسة

يقع إقليم الزاب في الجنوب الشرقي للجزائر، على السفوح الجنوبية لجبال الأوراس، يتميز بموقعه الاستراتيجي الذي يعد حلقة وصل بين الجنوب الشرقي الصحراوي والشمال الشرقي للتلي للقطر الجزائري، وهو بوابة الصحراء من الجهة الشرقية، تحده طبيعيا جبال الأوراس من الشمال كحاجز طبيعي يفصله عن التل، أما القسم الجنوبي فتغطيه الكثبان الرملية المتقطعة كشط ملغيع وواحات وادي سوف ووادي رنغ (مياشي، 1995، صفحة 98)، أما إداريا فالإقليم يشكل نسبة كبيرة من الحدود الإدارية لولاية بسكرة، وتعد مدنه التاريخية عواصم لأقاليمه، فمدينة بسكرة قاعدة الزاب، ومدينة طولقة قاعدة الزاب الغربي،

ومدينة سيدي عقبة قاعدة الزاب الشرقي، يحده حسب التقسيم الإداري الحالي شرقا ولاية خنشلة، وغربا ولاية المسيلة، وجنوبا ولايتي الوادي والجلفة، وشمالا ولاية باتنة (خريطة 1)، ويقع فلكيا شرق خط غرينتش، بين خطي طول 5° و 6° شرقا، وشمال خط الاستواء، ما بين دائرتي عرض 34° و 35° شمالا. (DUBIEF, 1959, p. 95)

وتقسم الدراسات الحديثة (SERIZIAT, 1975، صفحة 15) (BEZOMBES, 1952، صفحة 4) إقليم الزاب من الناحية الجغرافية إلى قسمين رئيسيين هما:

1-2- الزاب الشرقي

من مدنه بسكرة، شتمة، سيدي عقبة، زريبة الواد، وخنقة سيدي ناجي الواقعة على التكوينات الفيضية والمنحصرة بين قدم الجناح الجنوبي لجبال الأوراس شمالا وشط ملغيغ جنوبا، ويتميز الزاب الشرقي بشمساعته وانبساطه.

2-2- الزاب الغربي

ومن أهم مدنه ليشانة، بوشقرون، فرفار، طولقة، لغروس، وبرج بن عزوز، تقع كلها على الطريق الرابط بين بسكرة وبوسعادة عند سفوح جبل بوغزال (بوخالفة، 2009، صفحة 71)، وحصرنا مجال البحث جغرافيا في هذا الإقليم، وتركز عملنا الميداني على البحث في التراث العمراني القصور الواحاتي الذي لا يزال يحافظ على نماذج تيميرية قديمة بشكل المدينة الإسلامية العتيقة، والتي تبرز لنا بقيمتها التراثية والعلمية والاقتصادية، مثل قصور طولقة، ليشانة، وفرفار (خريطة 1).

حيث قصر طولقة (الدفرة القديمة أو المدينة العتيقة) يقع غرب ولاية بسكرة، على بعد 36 كلم، بالضبط في الجهة الجنوبية لمدينة طولقة، ويُعدُّ النواة الأولى للمدينة، يحده واحات النخيل على طول الجهة الجنوبية والشرقية والجهة الشمالية الغربية، أما من جهة الشمال الشرقي فيحيط به السكن الحضري الجديد، ومن جهة الغرب نجد أجزاء من سور القصر والزوايا العثمانية وحدود واحات بلدية برج بن عزوز.

قصر ليشانة تابع إداريا لبلدية ليشانة الواقعة جنوب شرق مدينة بسكرة، الواقع على بعد 4 كلم من بلدية طولقة، وهو قريب من الطريق الرابط بين مدينتي ليشانة وفرفار، أما قصر فرفار يقع على الطريق الرابط بين طولقة وليشانة، يبعد ما يقرب 3 كلم عن مدينة طولقة و 2 كلم عن مدينة ليشانة، وكل هذه القصور شواهد أثرية على نماذج قديمة للعمارة العتيقة تعكس ذلك التفاعل بين إنسان المنطقة وبيئته، وتشكل من مجموعة معالم دينية ومدنية وعسكرية.

3- مفهوم القصر

من خلال بحثنا حول مدلول القصر في مصادر تاريخية وجغرافية، ومراجع وبحوث تناولت قصور المغرب العربي، وجدنا تباين في المدلول اللغوي والاصطلاحي، لذلك حاولنا التركيز على تحديد مفهوم القصر حسب مميزات القصور المنتشرة جنوب الجزائر.

1-3- لغة

كلمة قصر تشابهت في اللغات القديمة السامية واقتبسها الرومانية، وتعني البيت الكبير الذي يتبع خاصة القوم (ثويني، 2005، صفحة 566)، أما من ناحية التعريف اللغوي للقصر يعرف بأنه المنزل (ابن

منظور، د.ت، الصفحات 99-100)، وسمي كذلك لأنه تقصر فيه الحرم أي تحبس، مصداقا لقوله تعالى: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} - سورة الرحمن، الآية 72-، وجمع قَصْر قُصُور، مثلما جاء ذكره في القرآن الكريم، كقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا} - سورة الفرقان، الآية 10 -، ويعرف أيضا أنه ما شيد من المنازل والبيوت وعلا (العزاوي، 2013، صفحة 148)، وبصيغة أخرى هو بناية فخمة واسعة، وبالرجوع إلى المصادر التاريخية، فهذا التعريف الأخير يقترب من ما هو متداول بها، حيث القَصْر مقر الخليفة أو الحاكم وأفراد عائلته وبطانته (حملاوي، 2001، صفحة 32)، وما يضمه من غلمان وخصيان، كما يطلق لفظ القَصْر على سكن علياء القوم وأغنيائهم (بن قرية، 2011، صفحة 452).

وعلى العموم كانت القصور معروفة قبل الإسلام في حضارات الشرق واليمن، كما هو قَصْر غمدان (ثويني، 2005، الصفحات 566-567)، وعرف تاريخ الإسلام أول قَصْر في مدينة الكوفة -التي أسست سنة 17هـ- (الحموي، 1977، صفحة 491) بما يدعى قَصْر الإمارة أو قَصْر الكوفة، الذي بني لسعد بن أبي وقاص متاخما للمسجد الجامع (الطبري، د.ت، صفحة 649)، ليطغى بناء القصور في العهد الأموي لما توفره من رفاهية لخلفاء بني أمية، والذي يعتبره بعض الباحثين أولى حالات بناء القصور في العمارة الإسلامية (ثويني، 2005، الصفحات 566-567)، منها على سبيل المثال قَصْر الخضراء (موسى، 2008، صفحة 156).

2-3- اصطلاحا

من ناحية الاصطلاح تتسع دلالة القَصْر في المناطق الصحراوية عما قدمناه لغويا، الأستاذ علي حملاوي يعرفه أنه: "قرية محصنة أو بالأحرى تكتلات سكنية متراصة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية، تنتهي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة، يحيط بهذه التكتلات أحيانا سور سميك تتخلله مزاغل ومدعم بأبراج، وأحيانا تخلوا بتاتا من مثل هذه العناصر الدفاعية، ولكن تعوض بجدران البيوت الخارجية لتشكّل في النهاية ما يشبه السور يحيط بكافة أرجائها" (حملاوي، 2001، صفحة 32).

أما الأستاذ عبد الصمد زايد وضع القَصْر أنه: "جملة من غرف عديدة متلاصقة، تفتح على ساحة داخلية غالبا ما تتخذ شكلا هندسيا مستطيلا أو مربعا أو غيرهما، وتتوزع هذه الغرف التي قد يتجاوز عددها في بعض الحالات ثلاثمائة على أكثر من طابقين في أغلب الأحيان، وقد يصل عدد الطوابق إلى خمسة في بعض القصور الضخمة، وتمتلك كل أسرة من أسر القبيلة غرفة أو أكثر لتخزن فيها العلف والحبوب والزيت والتمر، وما إلى ذلك مما تحتاجه في حياتها"، وهو يختلف عن تعريف الأستاذ علي حملاوي في جوانب عدة وظيفية واجتماعية وعمرانية (زايد، 1992، الصفحات 7-8)، حيث المقصود منه ليس القصور الصحراوية بل القصبات أو المخازن الجماعية المخصصة لتخزين المؤونة.

والفرسطيني يسمي القَصْر قصرا أو منزلا؛ ويجعله قضاء عمراني يجاور الحقول والبساتين، محاط بخندق وسور تتخلله مداخل وأبواب، يميزه شارعين رئيسيين ودروب ضيقة وأزقة مغلقة، وزعت مساحاته على الساكنة لبناء الدور والمساكن، وخصصت مساحات أخرى لمعالم عمرانية مشتركة مثل المسجد والسوق والساحات، يحتوي الساكنة بقصرهم من الذعار والسارقين وبه يخزنون محاصيلهم وأقواتهم (الفرسطيني، 1997، صفحة 161، 178، 190).

وتتفق أغلب الدراسات الحديثة في تعريفها للقَصْر أنه: "الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعا نوعيا، الذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي

الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية، ووقت الحروب للاحتماء من هجوم العدو، وفي هذه الحالة يتشكل القصر من سور فتح به مدخل واحد أو ما يعرف بقم القصر، ولمزيد من الحيطه والحذر يدعم برج أو برجين للمراقبة (حملاوي، 2001، صفحة 35).

إن القصور الصحراوية تبرز أصلاً تاريخياً عريقاً، ونمطاً عمرانياً متميزاً، يحتفظ بمعالم وطرز معمارية وفنية ونسيج عمراني عتيق، غني بتصاميمه وسمياته القديمة، وهو إرث سكنيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا هاماً، تمكن من الصمود في وجه الزمن، وهو عبارة عن قرى محصنة ذات تصميم هندسي فريد من نوعه، تأثر بالعوامل البيئية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يتميز بالتراس والتضام والانغلاق، على شكل بيوت متصلة فيما بينها، يتوسطها المسجد الجامع، تتخللها أزقة، محاطة بسور ضخمة وأبراج مراقبة.

4- أهمية ومميزات قصور الزاب الغربي

إن أهم ما ميز إقليم الزاب موقعه الاستراتيجي الهام الرابط بين الصحراء والتل، والذي تعرض عبر مراحل التاريخ القديم لغزوات متعددة (كالرومان، والبيزنطيين)، إلى أن فتحه العرب المسلمون؛ ليدخل في دائرة الحضارة الإسلامية، ثم حكمه العثمانيون، واحتله الفرنسيون، وفي كل مرحلة يشهد تطورات عمرانية وحضارية، لعل أكبرها كان في العصر الإسلامي؛ حيث عرف الإقليم استقراره السياسي وازدهاره ومساهمته الحضارية والفكرية في مختلف المجالات الحياتية والصناعية والعمرانية والفنية الإسلامية، كما أثرت عوامل أخرى مست إقليم الزاب الطبيعية (المناخ، التضاريس، التربة، المياه)، والاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، بالإضافة إلى وسائل دفاعية، خلقت منظومة معمارية-عمرانية واحاتية بالدرجة الأولى، وتشهد بقايا قصور الزاب الواقعة في قلب واحات النخيل على ما وصل إليه الفكر العمراني القديم لتعمير الإقليم بدءاً من الفترات القديمة ووصولاً إلى الفترات الحديثة.

يقدم التراث المعماري القصور للزاب الغربي - بقيمتها التاريخية والأثرية - دليلاً واضحاً على أنماطه العمرانية العتيقة، تخطيطاً وبناءً وعمارةً في تناسق متأقلم مع طبيعة الإقليم، وكذا الحلول التي اعتمدها الإنسان في تعامله مع المحيط والظروف المناخية القاسية، كما تبين دور مبنى القصر في تحقيق مطالب وحاجيات ساكنيه، حيث تتوسط القصور والمدن العتيقة قلب واحات النخيل، وتنظم كل قبيلة حول هذه الأخيرة في حيز جغرافي معين يوفر لها ضرورات الحياة كاملة؛ كالإنتاج الزراعي والحماية والدفاع، وهذا ما نلاحظه من خلال ما تحققه الواحة من دفاع عن الإنسان ضد عوامل المناخ بتلطيف الجو الحار والجاف أو من خلال إحاطة القصر بالسور، الذي يكونه مجموعة من المنشآت المدنية والعسكرية، كما تتميز التكوينات المعمارية والعمرانية بوجود عناصر أساسية كالمسجد والرحبة.

تختلف عينات البحث عن بعضها البعض من ناحية الشكل العام، لكن العامل المشترك بينها هو ارتباطها الوثيق بالواحة (الصورة 1)، فالتوضع جنب الواحة يضمن نوع من الأمن الغذائي، ويضمن التخفيف من شدة الحر والرياح، ويوفر الظلال التي تلطف الجو، زيادة على ذلك فالبقاء بالقرب من الواحة هو القرب من منابعها المائية، التي يصبح بها الاستقرار والحياة ممكنين، وكذلك تتميز بإحاطتها في أغلب الأحيان بسور خارجي به أبواب، إضافة إلى ملاءمة نماذج المنازل وأنماطها وموادها الإنشائية المستخدمة في البناء مع المناخ المحلي.

زيادة على ما سبق هذه القصور راعت الأمن والأمان، وعملت على زيادة تحصيناتها الدفاعية (الصورة 2) ببناء الأسوار والأبراج والمداخل والخنادق والتواء الشوارع والدروب، الأمر الذي أثر بشكل كبير على تخطيط القصور، والحد من مساحتها، فتميز نسيجها العمراني بالقدم والتضام والتراص، ودل ذلك على الكثافة العالية للمساكن الفردية ذات النمط التقليدي القديم، وعكس فكرة التماسك الاجتماعي، والحفاظ على الأراضي الزراعية، والتوافق مع الظروف المناخية، حيث تعكس هذه القصور عبقرية إنسان المنطقة في إيجاد حلول معمارية مناسبة تتوافق وما توفره البيئة، والتي تجسدت في اختيار مواد البناء والتقنيات والعناصر المعمارية المناسبة.

لقد تنوعت مواد البناء المستعملة في عمارة قصور الزاب الغربي، وهي مواد محلية متوفرة بالمنطقة جسدت تفاعل الإنسان مع بيئته (صورة 3)، حيث اعتمد بناؤها على ما توفر من مواد بيئتهم المحيطة، واستغلوها في إنجاز العمائر العامة منها والخاصة بسهولة ويسر دون عناء. فتم اقتناء المواد من المناطق المجاورة وهيئتها للاستعمال، ثم تم توزيعها حسب خصائصها وما يتلاءم وطبيعة مناخ المنطقة الصحراوي، فلكل مادة خصائص ومميزات تستوجب استعمالات معينة وتفرض نفسها على الشكل (بحر، 1992، صفحة 26).

من ناحية التركيب العمراني يتألف القصر في شكله الأساسي من قرية محاطة بالأسوار، عليها أبراج حراسة، تشقها طرق ضيقة، ولها مدخل أو مداخل كثيرة، وبها عدد من الفضاءات الجماعية في الداخل، وتوجد القصور بصفة عامة وسط الحقول، بشكل خلية سكنية تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب الرابطة الاجتماعية ذات الأصول القبلية المتعددة والمتوارثة، والمتشابهة في أنماط العيش، وبذلك يكون القصر وحدة سكنية تنفرد بها واحات الجنوب الجزائري.

أهم المنشآت الدينية التي تميز القصور هي المسجد الجامع، الذي غالبا ما يكون عبارة عن بناية مستقلة، تحتوي على جميع المرافق الضرورية لأداء الصلاة، ويمثل المسجد النواة المركزية في تشكيل وتوحيد النسيج الحضري للقصور، لذلك غالبا ما يشغل الوسطية بالقصر، لغاية تقريب الجامع من مساكن العامة، وبذلك يسهل على المصلين التوجه إليه من جميع الأطراف (صورة 4).

5- التعريف بوضعية القصور الراهنة

قصور إقليم الزاب الغربي لا تختلف عن المدن والقصور القديمة الأخرى في الزاب الشرقي خصوصا وصحراء الجزائر عموماً؛ فيما تواجهه من مشاكل وأخطار تهددها، فهي تواجه مشاكل وأخطار قد تمحي نهائيا طابعها وطرازها المعماري العتيق، والتي سنحاول إيجازها في شكل أخطار بشرية وطبيعية

1-5- الأخطار البشرية

من بين أهم الأخطار والأضرار البشرية التي تتعرض لها المنشآت المعمارية لقصور الزاب الغربي

نوجز ما يلي:

- فراغ هذه القصور من محتواها البشري وهجرة السكان لها على اعتبار أنها لا تلي متطلبات الحياة العصرية، مما نتج عنه انعدام الحياة بها، وفقدان كثير من المنشآت المعمارية والمعالم العمرانية لأدوارها ووظائفها، وعلى سبيل المثال اختفاء النشاط الديني والاجتماعي والاقتصادي في المساجد والساحات العامة.
- فقدان الوعي الأثري لدى بعض الأفراد، أو بمعنى آخر ضعف الإحساس بقيمة وأهمية التراث العمراني، فنتيجة الزيادة السكانية الكبيرة والتي لا تتوفر الإمكانيات المادية لإسكانها بالأحياء الجديدة خارج المراكز

العمرانية التاريخية، نجم عنه توجه السكان إلى إسقاط المنازل العتيقة، وتعويضها ببناءات عصرية تتوافق والرغبة في التحديث أو التوسع بمواد مغايرة من خرسانة وإسمنت (صورة5)، وهي سلوكات هدامة غير واعية لبعض المواطنين مشوهة للوجه الأصيل للواجهة العمرانية.

- هناك مشاكل ناتجة عن استخدام السيارات ووسائل المواصلات الحديثة، وما تمثله من عبء على شوارع وحارات القصور العتيقة، والتي بالتأكيد لم تخطط لتتناسب واحتياجات المرور الحديثة، إضافة إلى ما تحدثه هذه الوسائل من اهتزازات تؤثر على المباني، وما تبعث به من أدخنة ملوثة تحمل جزيئات مؤكسدة، زيادة إلى استعمال وسائل معيشية حديثة بشكل مشوه مثل المبردات والهواتف السلكية وأعمدة الكهرباء. - تم استغلال العديد من منازل القصور كأماكن لرمي النفايات، وتسبب ذلك في اندلاع نيران أحرقت الأعمدة والأسقف الخشبية، مما تسبب في سقوط العديد من المنازل، ومنها ما صمد ولم ينهار وبقي شاهداً على هذه الوضعية المزرية.

- مياه الشرب والري والصرف هي عوامل مدمرة لمنشآت القصور في ظل عدم السيطرة عليها، خاصة وأن أغلب المواد الإنشائية لعمارة القصور هي طينية هشّة تتأثر سلباً بالرطوبة، حيث تتسرب المياه من خلال التربة المسامية إلى جدران الطوب وتتلفها، وتكرارات العملية تؤدي إلى حدوث انهيارات في المباني (صورة6). - عدم توجيه الرعاية اللازمة للقصور بغياب مشاريع صيانة وترميم تساعد في إعادة إحياء هذا الموروث الثقافي وبعث الحياة به من جديد، وإعادة الأدوار الوظيفية لبعض المعالم العمرانية مثل الرحبات والدكاكين القديمة، وحركية الحارات بإعادة إعمارها بمحتوى بشري يمدّها بالنشاط ويجعلها مقصد القريب وحتى البعيد من الناس والمهتمين بقصور الصحراء.

2-5- الأخطار الطبيعية

ما هو متعارف عليه أن الآثار في المناطق الصحراوية لا تعمر كثيراً نظراً لطبيعة مناخ المنطقة الصحراوي، الذي يعمل على طمسها في ظروف زمنية غير طويلة، فمواد البناء مثل الطوب، المون، الحجر المسامي، والأخشاب، وغيرها تعاني من عوامل التلف المختلفة خاصة الجوية منها، وتتأثر بها بشكل سلبي ومتباين حسب المادة الإنشائية وخصائصها، فعوامل المناخ تؤثر بشكل منفصل أو مشترك مع بعضها البعض في التأثير كلياً أو جزئياً على مواد البناء، وتعتبر التغيرات اليومية في درجات الحرارة من أخطر عوامل التلف خاصة على المواد الطينية، حيث أن ارتفاع درجات الحرارة صيفاً ونهاراً وانخفاضها شتاءً وليلاً نتج عنه تصدعات في المنشآت المعمارية وتحلل لمواد الإنشاء العضوية وتساقط لمواد الربط والتكسية.

كما أثرت مياه الأمطار على الطوب والمواد اللاصقة ومواد التكسية الطينية للجدران الخارجية بحث كميات من الطين وتساقطها (صورة7)، كما أن جريان المياه وتجمعها عند الأساسات أثر سلباً على تماسك وحدات البناء وتلف بعض منها، مما نتج عنه تصدعات وانهيارات معمارية بدرجات مختلفة.

إن تأثير الرياح على المواد الإنشائية بالمنطقة يزداد خاصة عندما تحمل الرياح معها الرمال والأتربة وتشتد سرعتها (ALKAMA، 2005، الصفحات 64-66)، فهي تعمل على نحر طبقات الطين الموجودة على الجدران، كما تساعد كذلك في كسر بعض العناصر المعمارية أحياناً مثل الأبواب والأعمدة الخشبية والسقائف.

6- مقترحات للحفاظ على القصور

إن قضية الحفاظ على القصور الصحراوية وصيانتها يجب أن تحتل مكانا متقدما في سياق قضايا حماية التراث الثقافي الوطني، نظرا لعدة اعتبارات منها الأهمية التاريخية والأثرية والعلمية والاقتصادية لهذا الموروث المعماري، فهو سجل يحفظ تاريخ وحضارة إنسان الزاب الغربي، ويكشف عن عبقرية إنسان المنطقة في التعامل مع الظروف المحيطة وتوجيهها لصالحه، وهو إرث نحافظ عليه للأجيال اللاحقة حتى تعيش من خلاله بعضاً من الماضي وتكتشف أسرارها، كما يمكن فتح هذه المراكز التاريخية أمام الجمهور، مما ينتج عنه صناعة السياحة (سعد، 1999، صفحة 14) وتنمية المنطقة وزيادة الدخل والإيرادات المالية، دون أن نهمل الواقع المر للتراث القصور من تراجع كبير للنسيج العمراني، وهجرة السكان، وأخطار بشرية وطبيعية تنذر بزوال ما بقي من الشواهد التاريخية.

قصور الزاب الغربي تزخر بكثير من المباني والمنشآت الأثرية، والتي تحكي فترات زمنية متعاقبة، إضافة إلى طرز ومعاليم معمارية وفنية تتميز بأصالتها، فإن نحن زدنا في إهمالها أصابها التلف ثم الاندثار وخسرنا كنزا ثميناً، وإن نحن تعهدناها بالحفاظ عليه وصيانتها ونشر أهميته بين مختلف شرائح المجتمع نكون بذلك قد خدمنا التراث، ونوصي من خلال بحثنا هذا إلى محاربة كل الأخطار والأضرار البشرية والمناخية السابقة الذكر بطريقة منظمة وعلمية، وهذه جملة من الحلول التي يمكن أن تخدم كل مهتم بالحفاظ على هذه المعالم:

- توعية المجتمع بأهمية الموروث الثقافي المادي، وإبراز دوره في الحد من الأضرار والأخطار التي تهدد القصور الصحراوية عموماً، وجعل هذه الأخيرة قطاعات محفوظة أهلة بالسكان من خلال تحسين ظروف الحياة والخدمات العصرية اللازمة.

- وضع برامج للصيانة والترميم يسهر عليها مختصون، والعمل على إعادة بناء المنازل المنهارة انطلاقاً من موادها الإنشائية بنفس الكيفية التي كانت عليها، وترميم المباني القديمة المهجورة غير المنهارة، والعمل على إحيائها وتفعيل نشاطها من جديد، وإصلاح المنشآت المائية، والعمل على التعريف بهذه المراكز التاريخية لتحريك السياحة المحلية وتنمية المنطقة وزيادة وتنوع مداخيل البلاد.

- العمل على إبعاد مسببات حرائق المباني، وعدم وضع مواد سهلة الاشتعال داخل القصور، وتزويد الأماكن بوسائل إطفاء الحرائق، مع وضع لافتات تمنع تفريغ النفايات أو ترك مواد قابلة للاشتعال، وفرض عقوبات على المخالفين بحسب ما ينص عليه القانون.

- العمل على تشجير محيط القصور للتقليل من أخطار الرياح على المنشآت، فسرعة الرياح تقل عند اصطدامها بالأشجار، كما تترسب حمولتها من الرمال والأتربة قبل أن تصل للمباني وتسبب في إتلافها مع مرور الزمن.

- تبدو جلية قصور الزاب الغربي بمشاهد الفقر والإهمال، لذلك يجب فرض رقابة على تدخلات الإنسان اليومية خاصة رمي النفايات أو نقل المواد الإنشائية خارج القصور أو البناء بمواد مشوهة، مع تسليط عقوبات على المعتدين.

- العمل على بناء بعض المعالم العمرانية المندثرة مثل الأبواب والمداخل الرئيسية للقصور لإعطائها طابع تقليدي يميزها عن المدن العصرية، والعمل على تنظيم وتقليص استخدام السيارات ووسائل النقل الحديثة بحسب سعة الطرق والشوارع.

خاتمة

إن قصور الزاب الغربي تواجه أخطار قد تمحي وجودها نهائيا، وتطمس شواهد ومعالم تاريخية وأثرية هي في حقيقة الأمر سجل تاريخي لماضي المنطقة، ومنها أخطار بشرية؛ يأتي في مقدمتها قلة إحساس ووعي بعض أفراد المجتمع بأهمية هذا الموروث المعماري، فهجرها أغلبيتهم، وعمل بعضهم على إزالة منشآت وعوضوها ببنائات عصرية شوهدت أصالتها، وبعضهم الآخر لوثها وجعل منها مكان لرمي النفايات، وهناك أخطار طبيعية خاصة عناصر المناخ من حرارة وتساقط ورياح زادت من معاناتها؛ بين الحث والكسر والشرخ وانتهاء بالانهيار.

وعليه قدمنا حلولاً مستعجلة لإنقاذ هذه الطرز المعمارية الواحاتية، منها العمل على حماية هذه المراكز التاريخية - كقطاعات محفوظة -، ومنع إلحاق الضرر بها، والعمل على ترميم وصيانة مختلف المنشآت الأثرية، مع تشجير محيطها وترميم المنشآت المائية، ووضع لافتات تمنع تفريغ النفايات أو ترك مواد قابلة للاشتعال.

وفي كلمة أخيرة، ومن خلال هذا المقال ندعو إلى الاهتمام بالآثار الصحراوية عموماً والقصور الصحراوية خصوصاً، باعتبارها ممتلكات ثقافية ذات طابع عمراني ومعماري متميز، وتحمل في طياتها تجارب الإنسان الصحراوي لقرون طويلة، وتبرز تحديّ إنسان المنطقة في التكيف مع الظروف الصعبة، وكيف أسهم بشكل كبير في صناعة التاريخ وإيجاد سبل تحميه من قساوة المنطقة، ويجعل من مراكز استقراره نقاط تشع بالحياة والحضارة.

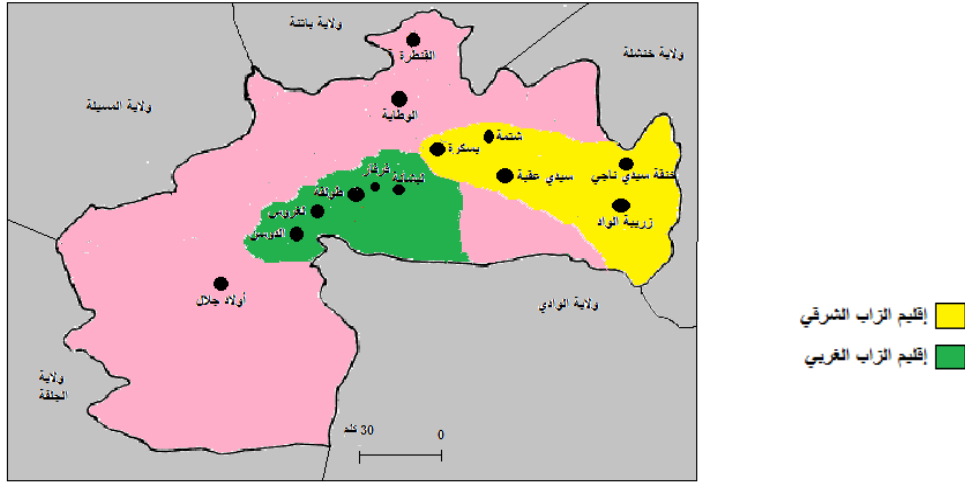
- المراجع

1. القرآن الكريم.
2. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، ع.ن. (د.ت). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
3. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ع.ن. (د.ت). تاريخ الطبري. الأردن: بيت الأفكار الدولية.
4. ياقوت الحموي، ع.ن. (1977). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.
5. رثيف مهنا، يسن بحر، ع.ن. (1992). نظريات العمارة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
6. عبد الصمد زايد، ع.ن. (1992). عالم القصور بالجنوب الشرقي التونسي. تونس: بيت الحكمة.
7. إبراهيم مياي، ع.ن. (1995). إحتلال بوابة الصحراء "بسكرة عروس الزيبان". ع3. الجزائر: حوليات الجزائر.
8. أبي العباس أحمد الفرستائي، ع.ن. (1997). القسمة وأصول الأرضين. ط2. غرداية: المطبعة العربية.
9. عثمان محمد غنيم، بنيتا نبيل سعد، ع.ن. (1999). التخطيط السياحي في سبيل تخطيط مكاني شامل ومتكامل. ط1. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.
10. علي حملاوي، ع.ن. (2001). القصر بالجنوب الجزائري "مفهومه ومكوناته". الجزائر: مطبعة سومر.
11. علي ثويني، ع.ن. (2005). معجم عمارة الشعوب الإسلامية. بغداد: بيت الحكمة.
12. عبد الله كامل موسى، ع.ن. (2008). الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية والمشرق والمغرب "خلال العصرين النبوي والراشدي". القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
13. صالح بوخالفة، ع.ن. (2009). استخدام أداة الإستشعار عن بعد في دراسة الأوساط الطبيعية: حالة منطقة الزيبان. رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في تعليمية الجغرافيا، جامعة قسنطينة، الجزائر.
14. صالح يوسف بن قرية، ع.ن. (2011). أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته. عين مليلة: دار الهدى.

15. رعد جمال مناف العزاوي، ع.ن. (2013). *العمارة الأندلسية " من القرن الثاني الهجري إلى الخامس الهجري "*. رسالة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الإسلامي. جامعة بغداد. العراق.
16. هدوش صلاح الدين، عيساني إكرام، ع.ن. (2017). *السياحة الثقافية بمنطقة الأوراس " بين حماية التراث المادي والنمو الاقتصادي "* – الموقع الأثري تيمقاد أنموذجاً -، مجلة جديد الاقتصاد، الجزائر: الجمعية الوطنية للاقتصاديين الجزائريين.
17. Bezombes. H. (1952). *Etude d'Etablissements Humains dans une Commune Mixte des Ziban (l'Oued Djellal) .* Alger.
18. Dubief Jean. (1959). *le Climat du Sahara*, tome1. Alger.
19. Seriziat. (1975). *Etude sur l'Oasis de Biskra*. Paris : libraire-éditeur.
20. Alkama Djamel. (2005). *Les Villes Sahariennes et les Risques Naturels, la Ville et le désert – le Bas Sahara Algérien-*, Algérie, éditions Karthala et Ireman.

- الملاحق:

↑ ش الملحق 1: موقع إقليمي الزاب الشرقي والغربي (من عمل الباحث)



الملحق 2: فرفار – منظر للقصر من فتحة بمئذنة جامع يحي بن أحمد (من عمل الباحث)



الملحق 3: قصر ليشانة – جزء من السور (من عمل الباحث)



الملحق 4: قصر فرفار – أسلوب التسقيف المسطح للشوارع (من عمل الباحث)



الملحق 5: قصر ليشانة- مئذنة جامع سيدي سعادة تتوسط النسيج العمراني (من عمل الباحث)



الملحق 6: قصر طولقة – استعمال مواد بناء حديثة (من عمل الباحث)



الملحق 7: قصر طولقة - انهيار عمارة أحد المداخل (من عمل الباحث)



الملحق 8: قصر فرفار - آثار حُت الأمطار لمواد طينية (من عمل الباحث)

